الشخصية والحرية

حقًّا ان الإنسان لغز في هذه الدنيا بل قد يكون أعظم لغز فيها ! إنه لغز لا لأنه حيوان. ولا لأنه كائن اجتماعيّ ولا لأنه جزء من الطبيعة والمجتمع ، بل هو لغز لأنه شخص وبعبارة أدق لأن له شخصية. وليست الدنيا بعناصرها شيئاً مذكوراً بجانب الشخصية الانسانية

يعيش الإنسان مجاهداً . مهموماً مفكراً ، يريد أن يعلم ، من هو ؟ ومن أين أتى ؟ وإلى أين يذهب ؟ إن في مقدور الإنسان أن يعرف نفسه من جهة تساميه وانحطاطه ، إما بنوره أو بإلهامه أو بقلقه أو بإحساسه الباطني . إن في مقدوره ذلك لأنه كائن مزدوج ومتناقض ، شبيهٌ بالله وشبيهٌ بالحيوان . فهو سام وسافل ، حُر ومستعبد ، صالح للرقي والإنحطاط ، قادرٌ على الحب المفرط والتضحية وبذل النفس ، كما إنه قادر على منتهى القسوة والغلظة والأنانية التي لا حد لها .

الإنسان ، من حيث إنه كائن منحط ، يعمل وفقاً للمنافع الاقتصادية والبواعث الشهوية والهواجس النفسية ، غير إنه يألم لسقوطه ويؤنبه ضميره إذا اقترف الآثام ويرغب فيما هو خير

إن الشخصية الباطنة في الإنسان تنم عن طبيعة أرقى واستعداد أرقى .

الشخصية لا مثيل لها في العالم ولا يوزن بها شيء ولا يوضع شيء في مستواها .

الشخصية هي العالم الأصغر . وهي ليست جزءاً منه . وهذا ما جعله لغزاً . وشخصية الإنسان التفرّد لا يشترك فيها أحد . فكلٌ له شخصية متمايزة .

الشخصية ليست جزءاً من العالم ، بل العالم جزء منها . وهي ليست مادة ، فان ذلك رأي الماديين الذين لا يعترفون بالروح . وهي ليست شيئاً كأكثر شيء في الدنيا ولا كجزء منها كما يذهب الى ذلك علماء النفس والاجتماع . إذ لو كانت كذلك ، لما كانت لغزاً أو سرّاً من الأسرار

الشخصية ، جوهرٌ لا نهاية له ينطوي فيه سر الوجود. هي دائبة في تغير وهي الوحدة .

الشخصية ليست في حالة جمود بل تتطور وتخصب . وهي الانسان المثالي وليست كائناً حيًّا فحسب بل هي كائن حر أيضاً . إنها انتصار الروح على الطبيعة .

ان شكل الانسان الذي ندركه بحواسنا لا يتوقف على المادة بل ان معناه الانتصار على المادة

الشخصية خالدة والموت لا يضع حداً لوجود الشخصية الباطني وهي التي تحب وتبغض .
الانسان يبحث في قرارة نفسه عن الحرية دائماً ويصبو إليها . وبذلك يسهل وقوعه في العبودية . فهو لذلك ملك وعبد . وسيد ومسود . بيد ان العبودية خارجة عن الانسان . لكن الحرية متأصلة في قرارة نفسه . فهو لذلك كائن حر وحي ، يقاوم الاستعباد بطبيعته ، فقد خلقه الله حراً . واذا استعبد الإنسان غيره ، فانه إذا يستعبد نفسه . إذ المسيطر على الناس عبد للدنيا ، عبد للجماعات التي يتسلط عليها ، إذ لولاهم لما تحققت رغبته ولما نفذت مشيئته . فالمسيطر المستبد في حاجة الى من يسيطر عليه وصاحب الحاجة عبد .

الانسان ظالم إلى حد ما ، ظالم في الحكومة ، ظالم في أسرته ، ظالم في حانوته ، ظالم في وظيفته . إن له ميلاً لأن يظلم من حوله . وهو ظالم في حقده وفي حبه . وما الغيرة إلا مظهر من مظاهر الظلم بشكل سامي .

إنه ظالم لنفسه بالعقائد الكاذبة والأفكار الخاطئة والخوف والانانية التي هي أفظع أنواع الظلم . يظلم نفسه بشعوره بالضعف ونزوعه الشديد الى القوة والسيادة . وهو برغبته في الاستعباد ، لا يستعبد غيره فحسب ، بل يستعبد نفسه أيضاً . وإن أول رذيلة هي تسلط الانسان على الإنسان والحط من علو قدره . أما الحر فلا يرغب في التسلط على أحد . وأفظع من ذلك كله تسلط عبد صار سيداً .

ليس للمستبد وجود بغير الجمهور . إلاّ أنّ التطلع للقوة يناقض عظمة الانسان وشرفه وحريته . وقد حرم الانسان حريته وصار عبداً لا بالقوة الجسمانية بل بوسائل أخرى كثيرة كالتهديد والبيئة . والاستعباد قتل . وقد يصير الإنسان عبداً للرأي العام والعادات والواجبات التي يفرضها عليه المجتمع

وقد يجد الإنسان نفسه مهدداً بالموت جوعاً فيفقد حريته . والمال يمنح صاحبه الاستقلال وفقده يوجده في عوز . والصدق مرتبط بالحرية دائماً . أما العبودية فإنكار للصدق والخوف منه . وأن محبة الصدق انتصار للحرية . والعبودية خضوع وإذلال . وكما أن الإنسان الحر لا يخضع لأحد ولا يعتدي لأحد ، فهو كذلك لا يحب أن يكون سيداً متحكماً

الإنسان ليس عبداً للطبيعة والاجتماع فحسب ، بل هو عبد للمدنية التي ابتدعها تخلصاً من القوى الطبيعية فاخترع الآلات ووضعها بينه وبين الطبيعة وأخذ يدخل عليها التحسينات ، فضعفت قوته الجسمانية وحلت الآلات محلها وتعاون مع أخيه لمقاومة الطبيعة وتنظيم المجتمع غير أنه شرع يظلم غيره لهذه الغاية فنجم عن ذلك علاقة السيد بالعبد .

وقد تطورت المدنية بظلم الجماعات وتسخيرها . كذلك نرى تولستوي وروسو مثلا للمدنية

لأنها مدنية كاذبة ، مؤسسة على الاستعباد .

إن المدنية ليست الهدف الأخير لوجود الإنسانية وهي تعد بتحريره . ولا نزاع في أنها تعمل على تحريره ولكنها تجر معها الاستعباد حتى صار الانسان عبداً لها .

الانسان عبد لمبرودات شتى ابتدعها وهي جميعاً ليست في قرارة نفسه بل خارجها . فالقوة الخارجة المحيطة به هي التي تستعبده فهو عبد للشهوة الجنسية ، بيد أنه يخجل عند ذكرها . هذا ولم تتقدم المباحث الجنسية إلا حديثاً . كذلك هو عبد للحب . وهناك فرق بين الحب الجنسي والحب الروحاني . فالأول يفضي إلى العبودية ويسبب الشقاء ويجر المصائب . والعبودية الجنسية ارتباط بالمال . وتميل المرأة عادة إلى العبودية وإلى استعباد غيرها في آن واحد . فالإنسان في حالة عبودية لكنه لا يفطن غالباً الى أنه عبد وانه يحب العبودية أحياناً إلا أنه يصبو الى الحرية من أعماق نفسه . وليست الحرية شيئاً سهلاً بل هي صعبة . ومن السهل أن يظل الإنسان عبداً .

إن صعبة الحرية والسعي إليها والمكافحة في سبيل الحصول عليها ، دليل على الرقي والتقدم . وأن في الانسان عنصراً روحياً يأبى العبودية وأن تحريره ليس مطلب الطبيعة أو العقل أو الاجتماع كما قد يظن غالباً بل هو مطلب الروح وليس الإنسان روحياً فحسب بل هو حيوان أيضاً ومظهر لعالم المادي بيد أنه مع هذا روح . كذلك الروح حرية .

إن التحرر الروحي انتصار على القوة الأجنبية عن الإنسان غير أنه يصير عبداً من غير أن يفطن الى ذلك . ومن هذا يتبين تعقد الطبيعة الإنسانية . وقد يتخلص الإنسان من نوع من العبودية ويقع في نوع آخر منها . والمسألة المهمة في موضوعنا هو الخلاص نهائياً من العبودية . فالدنيا شر لا لأن المادة فيها بل لأنها ليست حرة ولأنها مستعبدة . وانتصار الروح على العبودية هو انتصار على الخوف من الحياة ومن الموت . إذ الخوف عبودية وهو يفضي الى الكذب . ويظن الانسان أنه يحمي نفسه بالكذب . وكما أنه يخاف أن يموت فكذلك يخاف أن يموت غيره . وهو يرتكب جريمة القتل بسبب الخوف . كذلك الحال في الحروب .

واذا كانت المدنية الحاضرة قد استعبدت الإنسان الى أقصى حد بسبب تسلط القوي على الضعيف والاستعمار والجشع وما جرته الحروب من محن وخراب فهل يأتي زمن يتخلص الإنسان فيه من تلك العبودية وتفوز الروح بالحرية ؟

مكتبة جامعة فؤاد الاول محمد رضا